Journal of Alasmarya University
Volume 12, December 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثاني عشر، ديسمبر 2009

المَلِك والأسد

في النقد الثقافي[1]

أ. د. محمد كريم الكواز*

النقد الثقافي

يعني النقد الثقافي «التوسع في مجالات الاهتمام والتحليل للأنساق، إذ لم يعد الأدب بالمفهوم التقليدي هو السائد في مجال الدراسة التحليلية والنقدية، وإنما غدا في بعض الدراسات المعاصرة، جزءاً من كل أكبر وأوسع وأشمل، حتى سُمي الكل بالدراسات الثقافية»[2].

الأدب بهذا المنظور صفحة من فكر الأمة التي تنتجه، على مستوى إنتاجه (إبداعه)، وعلى مستوى استهلاكه (قراءته)، وتبع ذلك تغيّرٌ في منهج تحليله، فصار المنهج يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية المتبعة في الاجتماع والتاريخ والسياسة، مع الإبقاء على مناهج التحليل الأدبي والنقدي[3].

ونفهم أن مجال النقد الثقافي أوسع من مجال الأدب، و«النص الأدبي جزء من

1- قسم من كتاب معد للطبع.

* الجامعة الأسمرية.

2- تحولات النقد الثقافي، عبد القادر الرباعي، دار جرير، الأردن، 2007 ص 15.

3- ينظر النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت 2000. ص: 48.

سياق تاريخي، يتفاعل مع مكونات الثقافة الأخرى، من مؤسسات ومعتقدات»[4]، فماذا لو خرجنا من الأدب إلى مجاله الثقافي، ماذا لو سألنا: «أفي الأدب شيء آخر غير الأدب؟»، بحركة تعتمد الأدب أساساً، لتشخيص الأنساق الثقافية التي ظهر الأدب فيها؟، ولاكتشاف الدلالات المضمرة في نصوصه؟.

سنحتاج أولاً إلى دلالة جديدة للأدب، تضم الأنواع المنسية، مثل قصص الأنبياء، وقصص الحيوان، وقصص الأحلام، وحكايات ألف ليلة وليلة، والسير الشعبية، وحكايات الجنس، وغيرها مما كان لا يدخل في التعريف التقليدي للأدب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كثيراً من الكتابات التي كانت لا تُصنَّف تحت الأدب، يمكن أن تدخل فيه، إذا راعينا عنصر الإبداع الشخصي في إنتاج الأدب، فإننا سنُدخل فيه كتب التاريخ القديم، مثل تاريخ اليعقوبي والطبري والمسعودي، فلا تبعد هذه الكتب في آليتها السردية، عن القص كثيراً، فهي مجموعة من قصص الأشخاص الذين يقومون بأفعال في زمان مضى عنا، وعنوان تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) خير دليل على اهتمامه ببطولة الشخصية، فضلاً عن عنوان كتاب الذهبي (سير أعلام النبلاء)، كما لا تبعد عن هذا أيضاً كتب الجغرافيا، مثل كتاب ياقوت الحموي (معجم البلدان)، إذ هو يسرد قصة البلد، بدءاً باسمه، وانتهاءً بصورته في زمان الكاتب أو قريباً منه.

لا نريد الإسهاب في تعداد ما يمكن أن ينضم إلى راية الأدب، من جموع النصوص القديمة، إنما نريد العودة إلى الأدب نفسه، وعلاقته بالأنساق الثقافية، والأنساق الثقافية مواضعات اجتماعية أو دينية أو أخلاقية، مقبولة ضمنياً من قبل المؤلف والقارئ[5]، وهي تتحكم في مضمون الأدب و شكله، كما تتدخل في نوعه ونمطه، وما ارتفاع منزلة الخطابة، وانحطاط قدر الشعر، في العصر الإسلامي مثلاً، إلا دليل على تأثير الأنساق الثقافية، فضلاً عن تقديس الكتابة في مجتمع شفاهي، مثل العصر الجاهلي، وسعي الموالي (الأعاجم) إلى حمل العلوم العربية، كالنحو والبلاغة وغيرهما، بعد أن سيطر العرب على مقاليد الحكم، وأبعدوهم عنها، وتهافت الملوك على مدح الشعراء، في مواجهة المعارضة الدينية والسياسية.

4- دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2 2000. ص 46.

5- المقامات، السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كيليطو، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، المغرب، ط2 2001. ص8.

ولا تخرج العلاقة بين الأدب والسياسة عن ذلك، فقد كان الأدب يدل على التهذيب والخلق الحسن، ما دامت السياسة ترتكز إلى الدين، والحاكم يستمد سلطته من السماء، وكانت قصص الحيوان والكتب القديمة التي احتوتها، مثل (كليلة ودمنة) لابن المقفع، و(قصص الأمير مرزبان) [6]، و(فاكهة الخلفاء) لابن عربشاه، تعزز هذا المفهوم، وتعمل على إشاعته بين الناس، وعندما تلاشى هذا الوهم، مع النهضة الحديثة، وصارت الشعوب تثور على حكّامها، تغيرت دلالة الأدب إلى فنٍ، يعبر فيه الإنسان عن ذاته، وهو ما عبرت عنه قصص الحيوان الحديثة، مثل (القرود) [7] و(الحيوانات) [8] للصادق النيهوم، كما تغيّرت بنية هذه القصص، فلم تتصدرها قصة إطارية، ولم يروها راوٍ مسمَّى كما كان.

كشف النقد الثقافي العربي أن في الأدب دلالات مضمرة، كانت تخفى على النقد الأدبي، وكتاب الغذامي جهد في هذا المجال[9]، وقبله كان كتاب كيليطو[10]، وبعده جاء كتاب نضال الشمالي[11]، ليكتشف الوظيفة النسقية (لأسطورة الرجل الأبيض) و(تشيئ المرأة أو تهميشها) في بعض الروايات التاريخية، ويفصح عن الدلالات المضمرة فيهما[12].

وقد مشينا على الخطى نفسها، إلا أنها هذه المرة مع قصص الحيوان التي أُنشئت لتعليم الآداب السياسية، تعليم الملوك سياسة الرعية، وتعليم الرعية كيفية التعامل مع ملوكها، وقد واجهتنا مفارقة، وهي سعي الحكماء، وهم أدباء، إلى تأليف كتب، تثني الملوك، وهم مستبدون، عن طغيانهم، وتطلب إليهم العدل والرحمة بالرعية، ثم يسعى الملوك من جانبهم إلى نشر الكتب، وهي تحتوي على ذكر استبدادهم، فلماذا يسعى الملوك إلى ذلك؟، تنتهي المفارقة حين نتصور الفائدة العظيمة من إشاعة الكتاب لطغيان

6- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان، مرزبان بن رستم بن شروين، ترجمة يوسف عبد الفتاح فرج، المشروع القومي للترجمة رقم 212، المجلس الأعلى للثقافة، مصر 2000.

7- القرود، صادق النيهوم، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا 1983.

8- الحيوانات، رواية، حكاية الصقر والفيل والسنجاب وما جرى من وقائع الذئب، صادق النيهوم، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا 1984.

9- النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية.

10- المقامات، السرد والأنساق الثقافية.

11- الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية.

12- نفسه: 255، 264.

الملـك وتجبّـره وعـتوّه، بحـيث يعم الخوف والرهبة والخضوع، فضلاً عن ترسيخ مبدأ الحكـم اللاهوتـي في نفـوس الـرعية، بحـيث يغدو الخروج عن طاعة المِلك، ولو كان فاجراً، خروجاً عن الإرادة الإلهية.

كانـت حركة العمل تبدأ بالنص الأدبي، بنقطة مختارة عشوائياً، وبعد تثبيتها ننتقل إلى ما حولها في النص، نلتقط السمات الأدبية، ثم نخرج إلى السياق، بحثاً عن تداعياته، وهي مستويات، قد تكون تاريخية، أو ثقافية، وهي لا شك، تعتمد على قاعدة اجتماعية، نشأ فيها النسق الثقافي.

والـتحول مـن النقد الأدبي (الجمالي) إلى النقد الثقافي، يجدّد دلالة الأدب نفسه، ثم يحدّث فهمنا له، وهو بهذا يفتح آفاقاً كانت مغلقة، بسطوة الدلالة التأديبية القديمة له، أو بـسلطة المِلـك المطلقـة علـيه، نتمنـى أن نكـون قـد حرّضنا على اكتشاف بعضٍ من المجهول، وهو كثير في التراث العربي، كما هو كثير في واقعنا المعاصر.

الطغيان

لم يؤلّـف بـيدبا الفيلـسوف الهـندي كتاب (كليلة ودمنة) من تلقاء نفسه، لم يؤلفه محـبةً في التألـيف، وإنما استجابة لرغبة، عبّر عنها دبشليم ملك الهند[13]، ولكن الملك والكاتب كانا في سياقات أنتجت الكتابة، كما أن هناك نسقاً، عمل على الظهور في النص المكـتوب، لم يكن الملك يرغب في الكتابة دون سبب، ولم يكن الكاتب يستجيب دون سبب أيضاً، لنقرأ إذن سياق كتابة (كليلة ودمنة)، مستمدين معلوماتنا من مصدرين:

أحـدهما علـي بـن الـشاه الفارسي، أو بهنود بن سحوان، وهذا نكرة، يكاد يكون وهمـاً، يتـناقض اسمـاه المذكوران إلى حد الافتعال، لكن مقدمته أصبحت لازمة لكتاب (كليلة ودمنة)، لا تخلو منها طبعة من طبعاته، لا يمكن حذف مقدمته، باعتبارها خارجة عـن صـلب الكـتاب، وهـي تقـدم معلـومات قـيمة في التعرف إليه، أو هي تغوص إلى السبب الذي من أجله وُضع.

والآخـر ول ديـورانت، مؤلـف (قـصة الحضارة)، وهو مرجع مشهور من مراجع الـتاريخ، فـصّل في دراسـة حـضارات الـشرق، وأفـرد للهـند معلومات وافية في السياسة والفنون والآداب، ولكنه لم يقترب من الكتاب، بل لم يذكره ضمن تاريخ الهند، أو ضمن

13- الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، المغرب، 1988. ص33.

آثارهم، لهذا سنقرن بينهما.

ضمن استيلاء الإسكندر الأكبر على الأرض مشارقها ومغاربها، كانت الهند في طريقه، فدخلها والتقى بجيش الملك (بورس)، فهزمه وأبقاه على الهند تحت مُلكه، لما رأى من شجاعته وبلاغته، وبعد سبع سنين تحررت الهند تحت سلطة (تشاندرا جوبتا) الشاب الشريف الذي ينتمي إلى طبقة الكشاترية المقاتلة، كان «من أروع من يثير الخيال في تاريخ الهند من الرجال»، وكان وزيره (كوتيلا تشاناكيا) السبب في تنظيم جيش التحرير، وإعلان التخلص من الغازي، وقيام (مدنية مساوية للمدنية اليونانية).

كان زمام الحكم الوزير، وهو برهمي ماكر، «عرف القيمة السياسية للدين، لكنه لم يتخذ من الدين هداية خلقية» ويقول ديورانت: «هو شبيه بدكتاتوريي هذا العصر، في إيمانه بأن كل الوسائل لها مبررات، ما دامت تنتهي إلى صالح الدولة؛ وكان غادراً لا يزجره من نفسه ضمير، إلا إزاء مليكه؛ فقد خدم (تشاندرا جوبتا) في منفاه وفي هزيمته، وفي مغامراته وفي دسائسه، وفي اغتياله للناس وفي نصره، واستطاع بفضل حكمته ودهائه، أن يجعل مُلك سيده أعظم ما عرفته الهند في تاريخها كله».

الملاحظ أنه رأى أن يدوّن آراءه في السياسة والجيش، وأن «الرواية لتنسب إليه كتاب (أرذاشاسترا) وهو أقدم كتاب مما بقي لنا من الأدب السنسكريتي»[14].

في رواية علي بن الشاه الفارسي، الإطار العام نفسه، الإسكندر يقتل (فور) الملك الهندي الذي خرج لملاقاته، وينصب عليهم رجلاً من ثقاته، ولكنهم يثورون عليه بعد مدة، ويملكون عليهم (دبشليم) وهو من أبناء ملوكهم، لكنه، لما رأى خضوع الملوك من حوله له، ويبدو أنه أخضعهم لسطانه، أساء السيرة مع رعيته، فظلم وعتا وطغى، وهنا يبرز الفيلسوف (بيدبا) فينصحه ويرشده إلى الطريق الصحيح، فيسجنه أول الأمر، ثم يدنيه ويسمع كلامه ويستوزره، ويكفيه بيدبا النظر في أمور الرعية، وفي أمور الأعداء ومحاربتهم، فينصرف إلى النظر في الكتب، وهنا يأمره الملك بالكتابة، رغبة منه في أن يخلد ذكره، قال دبشليم: «وقد أحببت أن تضع لي كتاباً بليغاً، تستفرغ فيه عقلك، يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته؛ فيسقط بذلك عني وعنهم كثيرٌ مما نحتاج إليه في معاناة الملك، وأريد أن يبقى

14- قصة الحضارة، ول ديورانت، (موقع الوراق) ص 749.

لي هذا الكتاب من بعدي ذكراً على غابر الدهور»[15].

لا يهم الاختلاف في اسم الملك أو الوزير أو الكتاب، وفي سيطرة الملك أو الوزير على الحكم، المهم الباعث على الكتابة، في المصدر الأول أن الوزير رأى أن يكتب تجربته في الحكم، ومن البديهي أن يذكر إسهام المَلِك فيها، وفي المصدر الثاني أن المَلِك رأى أن يكتب الوزير تجربته في الحكم، ومن البديهي أن يذكر إسهام الوزير فيها، في الحالين هناك رغبة في الكتابة بعد انتهاء الرحلة، رحلة الحكم في قتال الأعداء، وتثبيت الأمن، وفي المغامرات والدسائس، وفي الطغيان والعتو والتجبّر، ولكن من يصدق أن السلطان يعترف بجرائمه، ويرغب في تدوينها وحفظها؟، ألا تكون شهادة في غير صالحه؟.

يؤدي الباعث على الكتابة (وظيفة نسقية)، وهي لا تحدث إلا في وضع محدد، وذلك حين يتعارض نسقان، أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضاً وناسخاً للظاهر[16]، وأمامنا النسقان، الأول ظاهر، وهو الرغبة في الكتابة، وقد نظر دبشليم «في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده، وأحب أن يكون في الخزانة كتاب باسمه»، يمكن تفسير وجه الرغبة بالخلود، ببقاء الذكر مع فلاسفة الهند الذين خُلدت أسماؤهم في الكتب. والآخر مضمر، وهو ترسيخ الطغيان والعتو والتجبّر والتكبّر في صورة الملك، وتثبيت هذه المعالم في ذاكرة الرعية، بوصفها ركناً طبيعياً للمُلْك.

نقرأ في نسخة شيخو من (كليلة ودمنة): «فلما استقر لهذا المَلِك المُلك، واستوسق له الأمر، طغى وعتا وتجبّر وتكبّر، وجعل يغزو من حوله من الملوك، وكان مع ذلك مظفراً منصوراً، فهابته الرعية، فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة، عبث بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم، وكان لا يرتقي حاله إلا ازداد عتواً. ومكث على ذلك برهة من دهره»[17].

وفي نسخة أخرى «فلما استوسق له الأمر، واستقر له الملك، وكان مع ذلك مؤيداً مظفراً منصوراً، فهابته الرعية، فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة، عبث

15- كليلة ودمنة، ابن المقفع (موقع الوراق) ص 8.

16- النقد الثقافي: 77.

17- كليلة ودمنة، ابن المقفع، تحقيق لويس شيخو، دار المشرق، بيروت ط14 1994. ص10.

بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم، وكان لا ترتقي حاله إلا ازداد عتواً، فمكث على ذلك برهة من دهره»[18].

حُـذف مـن الـنص الثاني «طغى وعتا وتجبّر وتكبّر، وجعل يغزو من حوله من الملـوك»، وهـي دلالات، أراد الـذي حـذفها، دون أن يـدرك، تحـسين صورة الملك، أو تخفيف ثقله وسطوته، ولكنها موجودة في المضمر من النسق، في الباطن الذي أشار إليه الملك نفسه، حين أراد من الفيلسوف تأليف كتاب «يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته»، إذا تأملنا في تجلية رغـبة الملـك، فـسنراها ترسِّـخ صـورة النـسق المضمر، الملك الطاغي العاتي، والمظفر المنصور.

في تـرجمة ابـن المقفـع، وهـي كـتابة أخـرى للـنص في زمـن المنصور الخليفة العباسـي، تشابه واضح في السياق، فقد كان عهد المنصور مماثلاً لعهد دبشليم، حيث قام المنـصور بتصفية آثار الحكم الأموي، وقضى على معارضي حكمه، إبراهيم بن عبد الله، وأبـي مـسلم الخراسـاني، وعمـه عـبد الله بن علي، «فانتشرت فظاظة الخليفة واستبداده، حيث لا وجود لقواعد، أو قيم تحتكم السياسة إليها»[19].

تجمـع المصادر على أن الترجمة كانت في زمن المنصور، قال المسعودي: «هو أول خلـيفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية، منها كتاب كليلة ودمنة»[20]، ومـن الطبيعـي أن يكـون قد قرأها، وفطن إلى عمل ابن المقفع فيها، ربما ظن أنه بمثابة دبـشليم ملـك الهـند، وابن المقفع بمثابة فيلسوفهم، والفيلسوف يكتب: «فلما استقر لهذا المَلِـك المُلـك، واستوسـق لـه الأمـر، طغـى وعتا وتجبّر وتكبّر ...»، وهو المضمر من الوظـيفة النـسقية، حـيث إنـه يثـبّت صورة المنصور بوصفها صورة الملك المبتغاة، وهنا تكمن الرغبة في ترجمة الكتاب.

المبدع المتَّهم

في زمـن المنـصور بقـيت الوظـيفة النسقية تؤتي ثمارها، فما هو الظاهر منها، لا

18- كليلة ودمنة (موقع الوراق) ص 2.

19- جذور الميكافيلية في كليلة ودمنة، مصطفى سبيتي، دار الفارابي، بيروت، 2000. ص23.

20- مروج الذهب، المسعودي (موقع الوراق)، 2: 172.

سيما عمل ابن المقفع في الكتاب، وإظهاره بصورة جديدة، لها دلالة جديدة، تتفاعل مع السياق الجديد في زمن المنصور؟. تجلى عمل ابن المقفع في ترجمة النص، وفي إضافة مقدمة بعنوان (عرض الكتاب)، وملحق لباب (الأسد والثور) تحت عنوان (باب الفحص عن أمر دمنة)، إن للصورة الجديدة للكتاب دلالةً جديدة، قصد إليها ابن المقفع.

منذ زمن بعيد كان الاتهام يحوم حول عمل ابن المقفع، ذلك أن أبا الريحان البيروني (ت 440 هـ) وكان قد «أقام في الهند بضع سنين، واطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعلت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره»[21]، أصدر بصحته حكماً، ظل متداولاً كلما ذُكر (كليلة ودمنة)، البيروني قال: «وبودي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب (بنج تنتر) وهو المعروف عندنا بكتاب (كليلة ودمنة)، لأنه تردد بين الفارسية والهندية، ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم، لا يؤمن تغييرهم إياه، كعبد الله بن المقفع في زيادته باب (برزويه) فيه، قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية، وإذا كان متهماً فيما زاد، لم يخل عن مثله فيما نقله»[22].

في قول البيروني العناصر الآتية:

- أمنية البيروني ترجمة الكتاب، وذلك لأن الكاتب كان من أعمدة الثقافة، كان الجاحظ يكتب الكتاب ويضع اسمه عليه فلا يُقرأ، فإذا نسبه لعبد الله بن المقفع، وهو من «مَن قد طارت أسماؤهم في المصنفين» أقبل الناس عليها، وسارعوا إلى نسخها[23]، ومن حيث الكتاب، فإنه من النصوص الثقافية العامة التي أشار إليها الجاحظ، مما يتوجب على كل كاتب أن يقرأها[24]، فلا غرابة في أن يتمنى البيروني منزلة كمنزلة ابن المقفع.
- انتقال الكتاب من ثقافة إلى أخرى كان بمباركة الملوك، بل كان بتشجيعهم وقبولهم، أوفد كسرى أنو شروان الطبيب برزويهِ إلى الهند لترجمة الكتاب وجلبه إلى بلاد فارس، ولما عاد به جمع أنو شروان العظماء والأشراف، فقُرئ الكتاب

21- الأعلام، الزركلي، (موقع الوراق) 5: 314.
22- تحقيق ما للهند من مقولة، (موقع الوراق)، ص 62.
23- التنبيه والإشراف، المسعودي، (موقع الوراق) ص30.
24- رسائل الجاحظ، (موقع الوراق) 1: 125.

على رؤوس الأشهاد، ففرح الملك بذلك، وأمر له بجائزة[25].

- أما عن قدرة ابن المقفع على الترجمة، وسعة ثقافته، فالمعروف أنه «كان أحد النقلة من اللسان الفارسي إلى العربي، مضطلعاً باللغتين فصيح بهما»، ويعدد النديم كتبه المترجمة عن الفارسية، فيذكر كتاب (خداينامه في السير) و(آئين نامه) و(مزدك) و(التاج في سيرة أنوشروان) وغيرها[26]، فلماذا لم يتهمه البيروني بالإساءة في ترجمتها؟.

- زيادة (باب برزويه) ليست من عمل ابن المقفع، فهو باب أضيف إلى الأصل تكريماً لبرزويه الذي جلب الكتاب إلى خزائن فارس، وذلك أنه التمس كسرى أن امر وزيره بوضع باب «يذكر فيه أمري ويصف حالي؛ ولا يدع من المبالغة في ذلك أقصى ما يقدر عليه، ويأمره إذا استتمه أن يجعله أول الأبواب التي تقرأ قبل باب الأسد والثور، فإن الملك إذا فعل ذلك، فقد بلغ بي وبأهلي غايةً الشرف وأعلى المراتب؛ وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقياً على الأبد حيثما قرئ هذا الكتاب»[27]، برزويه اعتذر عن قبول هدية كسرى من «اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة»، وارتضى ذكره في الكتاب.

- الاتهام المسبق لابن المقفع بأنه وراء كل كتاب زندقة[28]، يشحذ الذهن بالبحث عن أية شبهة، فقيل: «ولما كان موضوع كليلة ودمنة سياسياً خالياً من آيات القرآن الكريم، وخالياً من أحاديث الرسول ﷺ، فلا يبعد من أن يكون زندقة»، والزندقة هنا تعني عدم الاعتماد على القرآن والحديث الشريف، تتحمل الزندقة هذه الدلالة، ما دامت صفة قدح، وقد تحملت الزندقة دلالات كثيرة متنوعة، «فالاتهام بها لم يقف عند حد، وكان من ضحاياها كثيرون بالحق أحياناً وبالباطل أحياناً»[29].

- كتاب (مرزبان نامه) تردد بين الطبرية وهي لهجة فارسية، وبين الفارسية والتركية والعربية، ولم يُتهم مترجموه، على الرغم من تغييرهم في بعض الأبواب، وزيادتهم

25- كليلة ودمنة، (موقع الوراق) ص14.
26- الفهرست، النديم، (موقع الوراق) ص132.
27- كليلة ودمنة، (موقع الوراق) ص14.
28- وفيات الأعيان، (موقع الوراق) 2: 151.
29- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10 (د.ت)، 1: 164.

أبواباً لم تكن فيه، يبدو أن جدة مضمون الكتاب (تعليم الملوك بأماثيل الحيوان) كانت خلف الموقف منه، فهو أول من أدخل هذا النوع السردي إلى أجناس الأدب العربي، ولكن خطورته تكمن في السياق السياسي، من حيث كونه نقداً سياسياً لدولة المنصور، « يوم كان الملوك والحكام يضيقون على الناس أنفاسهم ... ففشا هذا النوع من القول والقصص، يقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل »[30].

الانبهار بالإبداع يربك بعض العقول، يزعزع بعض المواقف، يميل بها عن الحكم السديد، وهنا إبداع أدبي سياسي، لم يعهد العرب مثله، شخصيات حيوانية تتبادل الرواية، تسرد أحداثاً جليلة، تتفوق على كثير من الناس بالحكمة والدهاء، توجه عنايتها إلى السلطان وخاصته، تنزلهم إلى حضيض الحيوان عندما تتمثلهم، الملك يصبح أسداً، والوزير دباً، والأعوان ثعالبَ وبناتِ آوى وذئاباً.

في التراث العربي استمداد كثير من الحيوان في موضوعات مختلفة، ففي تقسيم الناس عن سلمان الفارسي: « الناس أربعة: أسد، وذئب، وثعلب، وضأن، فأما الأسد فالملوك يفترسون. وأما الذئب فالتجار. وأما الثعلب فالقراء المخادعون. وأما الضأن فالمؤمن ينهشه كل من يراه »[31]، وفي موضوع السياسة: « قالت الترك: ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان: سخاء الديك، وتحنن الدجاجة، ونجدة الأسد، وحملة الخنزير وروغان الثعلب، وصبر الكلب، وحراسة الكركي، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وسمن بعروا (كذا)، وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء »[32].

الاستمداد من الحيوان هنا أفاد من صفة من صفات الحيوان، وضعها في الإنسان القائد أو الملك، فبقي الحيوان حيواناً والإنسان إنساناً، في أماثيل الحيوان تتشكل شخصية الحيوان من صفات إنسانية خالصة، فيفكر مثله، ويقوم بأفعاله، ويتكلم بلغته، ويستمد الحكمة، ويعتبر بالتجربة، وذلك أنها تهدف إلى تقديم فكرة محددة، من خلال السرد، هذا هو ما تمتاز به أماثيل الحيوان من غيرها.

في أول باب (الجرذ والسنور)، وكان بيدبا قد روى الباب الذي قبله، وهو

30- ضحى الإسلام، أحمد أمين 1: 232.

31- التذكرة الحمدونية، ابن حمدون، (موقع الوراق) 3: 157.

32- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، (موقع الوراق) 1: 44.

مخصص لأفضلية الحلم أو المروءة أو الحميّة أو الجود، بالنسبة إلى الملك، « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل رجل كثر أعداؤه، وأحدقوا به من كل جانب، فأشرف معهم على الهلاك، فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته، فسلم من الخوف وأمن، ثم وفّى لمن صالحه منهم».

طلب الملك: « فاضرب لي مثل رجل ...»، يكشف الهدف من السرد، ويحدد مضمونه مسبقاً، لذا يأتي كلام بيدبا على منواله، يكاد يكون استطراداً له، بل هو تسويغ له، من حيث تغير الأحوال، وضرورة اللبس لكل حالة لبوسها، على الرغم من غرابة الفكرة، فكرة موالاة الأعداء والوفاء لهم على صنيعهم.

« قال الفيلسوف: إن المودة والعداوة لا تثبتان على حالة واحدة أبداً، وربما حالت المودة إلى العداوة، وصارت العداوة ولاية وصداقة، ولهذا حوادث وعلل وتجارب، وذو الرأي يحدث لكل ما يحدث من ذلك رأياً جديداً، أما من قبل العدو فبالبأس، وأما من قبل الصديق فبالاستئناس، ولا تمنع ذا العقل عداوةٌ كانت في نفسه لعدوه، من مقاربته والاستنجاد به، على دفع مخوف أو جر مرغوب، ومن عمل في ذلك بالحزم ظفر بحاجته»

كل المفاهيم المذكورة إنسانية، وطلب الملك نفسه يحدد رجلاً ما، يقوم بفعل غريب، في ظروف خاصة، ويطلب من بيدبا مثلاً له، فيروي: « ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور حين وقعا في الورطة فنجوا باصطلاحهما جميعاً من الورطة والشدة قال الملك: وكيف كان ذلك قال بيديا: زعموا أن شجرة عظيمة كان في أصلها جحر سنور يقال له رومي وكان قريباً منه جحر جرذ يقال له فريدون ...»[33].

الجرذ والسنور يؤديان دوراً مرسوماً لهما سلفاً من قبل المِلك، لا يخرج سرد أمثولتهما عن إطار وضعهما فيه الملك، يجب أن يقوم الجرذ بفعل غريب، يفسر فعل الرجل الغريب، وتنتهي الأمثولة، في طبعة شيخو من (كليلة ودمنة) تعليق عند نهاية كل باب، يعيد فحواه، فجاء في النهاية: « فهذا باب مبصر فرصته في مصالحة عدوه، والأخذ بالاحتراس منه»[34]، لا نعرف التعليق لمن، لكنه مندرج في بناء الباب، مؤكِّد لما جاء فيه.

33- كليلة ودمنة، (موقع الوراق): 68.

34- نفسه ص 219.

القارئ القاتل[35]

في نسخة من (كليلة ودمنة)، قال عبد الله بن المقفع: لما رأيت أهل فارس قد فسروا هذا الكتاب من الهندية إلى الفارسية، وألحقوا به باباً، وهو باب برزويه الطبيب، ولم يذكروا فيه ما ذكرنا في هذا الباب لمن أراد قراءته واقتباس علومه وفوائده، وضعنا له هذا الباب[36].

ربما لم يقرأ البيروني هذه النسخة، حين اتهم ابن المقفع بزيادة باب برزويه، وربما لم يقرأ الباب نفسه، وفيه رجاء برزويه بإضافة الباب تخليداً له، لجهده بنقل الكتاب من الهند إلى فارس، المهم هنا إشارة ابن المقفع إلى طريقة القراءة والإفادة، والمهم أيضاً تعريضه بمن لا يجيدون القراءة والإفادة، وذلك أنه قدّم إرشادات في كيفية القراءة، بمعنى أن هناك من لا يحسنونها، وهذه الإرشادات مقدمة لهم، لم نألف هذه الطريقة في تقديم الكتب، غالبية المقدمات تبين موضوع الكتاب، وقد تذكر سبب الكتابة، كما في مقدمات الجاحظ، فإذا افترضنا أنه يقصد بمقدمته قارئاً، فمن يكون؟، سنحاول اكتشافه من خلال تلميحات ابن المقفع.

قبل هذا كان برزويهِ وهو يترجم (كليلة ودمنة) من الهندية إلى الفارسية، يتخيل القارئ الضمني لكتابه، سيكون حتماً كسرى أنو شروان، لأنه هو الذي كلّفه بالترجمة، وأغدق عليه ما يحتاج للتنفيذ، وهو ما حصل فعلاً، إذ «جمع أنو شروان العظماء والأشراف، فدخلوا عليه، ودعا ببزرجمهر (وزيره) بمحضر من برزويهِ، فقرئ على رؤوس الأشهاد»[37]، ولنا أن نقرر أن القارئ الضمني هنا هو نمط معياري من القرّاء، يمثّله الملك والوزير والعظماء والأشراف، وغيرهم ممن كان حاضراً الاجتماع، ممن تسعهم عبارة «قرئ على رؤوس الأشهاد».

لم يُحتفَل بترجمة ابن المقفع، ولم تُقرأ على رؤوس الأشهاد، في زمن المنصور، ولكن هذا لا يعني براءة المنصور من الترجمة، فالمعروف أن ابن المقفع ترجم له، فهل تخيّل ابن المقفع قارئ ترجمته المستهدف؟، الإجابة بالإيجاب من خلال ما ألمح إليه

35- لا يوجد هذا المصطلح في نظرية التلقي وجماليات القراءة، وقد اقتضاه البحث.

36- كليلة ودمنة، وضعها بيدبا الفيلسوف الهندي، وعربها بليغ العرب عبد الله بن المقفع، تحقيق مصطفى لطفي المنفلوطي، دار الفكر العربي، (د.م، ود.ت) ص83.

37- كليلة ودمنة، (شيخو): 34.

في المقدمة، فقد كان ينثر صورته في مواضع متفرقة، وفي نهايتها صنفه أربعة أصناف من خلال أغراض الكتاب، قال: «وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض: أحدها ما قُصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة؛ ليسارع إلى قراءته أهلُ الهزل من الشبان، فتستمال به قلوبهم؛ لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان. والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان، ليكون أنساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور. والثالث أن يكون على هذه الصفة، فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام؛ ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً. والغرض الرابع، وهو الأقصى، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصةً[38]. [أعني الوقوف على أسرار معاني الكتاب الباطنة]» [39].

يمكن أن نضع قارئاً لكل غرض، على الوجه الآتي:
استمالة القلوب = أهل الهزل من الشبان. (القارئ الجامع)
رسوم الحيوان الملونة = الملوك.
كثرة نسخ الكتاب وبقاؤه متداولاً = الملوك والسوقة.
الوقوف على معانيه الباطنة = الفيلسوف. (القارئ المثالي)

ويمكن تصنيف هؤلاء القرّاء على صنفين: الجهلاء، وهم الذين يقرءون الظاهر، وصفهم ابن المقفع بقوله: «الجهّال على إغفال أمر التفكر، والاغترار في أمر هذا الكتاب، وترك الوقوف على أسرار معانيه، والأخذ بظاهره، دون الأخذ بباطنه»[40]، وهؤلاء فئات، منهم من يتسلّون بنوادر الحيوان وحيله، وهؤلاء (أهل الهزل من الشبان)، ومنهم من يستمتع بالنظر إلى رسوم الحيوان الملونة، وهؤلاء (الملوك)، ومنهم من يتمتع باقتناء الكتاب، وتصفح ما فيه دون قراءته، وهؤلاء «الملوك والسوقة (العامة)»، والصنف الآخر العقلاء الذين يدركون دلالات الكتاب، يفهمون بواطن معانيه، وهم الفلاسفة.

في نهاية المقدمة أورد ابن المقفع تصنيفه هذا، وكان قد بدأها بنصائح للقارئ العام غير المخصص بوصف «لمن قرأ هذا الكتاب»، ويمكننا الآن أن نرجع كل نصيحة لصنف من القرّاء:

38- كليلة ودمنة، (موقع الوراق) ص19.
39- إضافة من طبعة شيخو ص59.
40- كليلة ودمنة، (شيخو) ص59.

- « ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له؛ وإلى أي غايةٍ جرى مؤلفه فيه، عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصحٍ؛ وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالاً، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرةً يجتني منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب، وإنه وإن كانت غايته استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه، لم يعد عليه شيءٌ يرجع إليه نفعه». هذا القارئ من (أهل الهزل من الشبان)، يتسلى بحيل الحيوان.
- « ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب؛ من غير إعمال الروية فيما يقرؤه ... لم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب، لأنه لم يفكر في آخر أمره» وهذا من (الملوك والسوقة) الذين يكثرون من اقتناء الكتب، ومن تصفحها دون إدراك ما فيها.
- « من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه، ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه»، وهذا من فئة (الملوك) الذين يتسلون بالرسوم وألوانها.
- « إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب، وبلغ نهاية علمه فيه، ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به؛ ويجعله مثالاً لا يحيد عنه»، وهذا قارئ عاقل، يمكن أن يدخل فئة الفلاسفة، إذا قرن علمه بعمله، فهو فيلسوف بشرط.
- « وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه»، وهذا من فئة (الملوك)، وقد سبقت.
- « وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجرٍ، ويلتمس جواهر معانيه، ولا يظن أن نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبعٍ لثور، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود»، وهذا من فئة (أهل الهزل من الشبان)، وقد سبقت[41].

كان تكرار النصائح مع القرّاء بواقع (2) لأهل الهزل من الشبان، و(3) للملوك، و(1) لكل من الفلاسفة والسوقة، هؤلاء يمثلون النمط المعياري للقارئ الضمني، لا كما تخيّله ابن المقفع، بل كما نصّ عليه بنفسه، فأين يدخل الخليفة (المِلك) المنصور؟، وكيف تكون ردة فعله؟.

41- كليلة ودمنة، (موقع الوراق) ص16-19.

المعـروف عـن ابـن المقفـع أنه كان قريباً من الملوك بحكم عمله، فقد «صحب بـني علي بن عبد الله، فكان يكتب لهم كتبهم» وهؤلاء أعمام المنصور، ولما ثار أحدهم عبد الله بن علي أجاره أخواه عيسى بن علي، وسليمان بن علي من المنصور، لكنه طلبه، فأرادا حفظ حياته، فاشترطا على المنصور أن يقرّ بكتاب أمان، فوافقهم، وكان ابن المقفع قـد كتـبه، فـشدّد فـيه على المنصور، والمنصور ينوي قتل عمه، فلما قرأ المنصور الأمان «أنكر ذلك وأكبره واستبد به غيظه على ابن المقفع، وكتب إلى سفيان (بن معاوية والي البـصرة) أن أكفـني ابـن المقفـع، ويقـال: إنـه شـافهه بذلك عند توديعه إياه»، وكان هذا يبغض ابن المقفع لأمور بينهما.

كانـت صـوراً بشعة لقتله، سُجر له تنور، وأتاه الحاجب فدق عنقه، فكأنما قصف قـثاءة، ثـم ألقـاه في التـنور، وابن المقفع يقول: يا أعوان الظلمة. ويقال: إنه ألقي في بئر، وأطـبق عليـه حجـر. ويقـال: بـل أدخل حماماً، فلم يزل فيه حتى مات. وقال عباس بن الولـيد النرسي: بلغني أن عنقه دُقّت بعد أن قُطّع عضواً عضواً، وألقيت أعضاؤه في النار، وهو يراها ويصيح صياحاً شديداً[42].

كـان ابن المقفع قد ترجم ضمن ما ترجم في (كليلة ودمنة) باب (الملك والطير فنـزة)[43]: قال بيدبا: زعموا أن ملكاً من ملوك الهند كان يقال له برهمون، وكان له طير، يقال له فنزة، وكان له فرخ، وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق، وكان الملك بهمـا معجباً، فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته، وأمرها بالمحافظة عليهما، واتفق أن امرأة الملـك ولـدت غلامـاً، فألـف الفـرخ الغـلام، وكلاهما طفلان يلعبان جميعاً. وكان فنزة يـذهب إلى الجـبل كـل يوم، فيأتي بفاكهة لا تعرف، فيطعم ابن الملك شطرها، ويطعم فـرخه شطرها. فأسرع ذلك في نشأتهما وزاد في شبابهما، وبان عليهما أثره عند الملك، فـازداد لفنـزة إكراماً وتعظيماً ومحبة، حتى إذا كان يوم من الأيام وفنزة غائب في اجتناء الثمـر، وفـرخه في حجر الغلام، ذرق في حجره، فغضب الغلام، وأخذ الفرخ فضرب به الأرض فمـات. ثـم إن فنـزة أقـبل فوجد فرخه مقتولاً فصاح وحزن وقال: قبحاً للملوك الـذين لا عهـد لهـم ولا وفـاء، وويـل لمن ابتُلى بصحبة الملوك الذين لا حميم لهم ولا رحيم.

42- أنساب الأشراف 2: 37.

43- كليلة ودمنة، (موقع الوراق) ص71.

أيكفي التعريض بالمنصور في: «قبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء»، وهو عمل المنصور مع عمه، وفي: «ويل لمن ابتُلي بصحبة الملوك الذين لا حميم لهم ولا رحيم»، وهو تعريض بشخصه الذي صحب الملوك، أيكفي هذا سبباً لقتله؟.

المُلْك العَضوض

لا بد من التوقف عند قاعدة (المُلْك العَضوض)، ونحن نبحث في العلاقة بين قصص الحيوان ووظيفتها النسقية، ويبدو السؤال الوجيه هنا: هل أدّت قصص الحيوان وظيفتها النسقية في ترسيخ قاعدة (الملك العضوض).

كان الحكم دينياً على عهد الرسول ﷺ، بمعنى أن الحاكم رسول من الله تعالى، يستمد قوته من نبوّته، ويهدف إلى تبليغ كلام الله إلى الناس، وبوفاته ﷺ تغير نمط الحكم، صار الحكم دنيوياً، حيث صار الحاكم بعد الرسول الكريم (خليفة له) في حكم الناس، ولم يعد يستمد قوته من النبوة، إنما استند إلى السنة النبوية، وصار يهدف إلى سياسة الناس، لا إلى تبليغ كلام الله، حيث أكمل الرسول الكريم المهمة.

لم يُقرأ التاريخ بعد رسول الله ﷺ قراءة محايدة، لذلك لا نجزم بصحة الصورة التاريخية المقدمة له، من وجهين: الأول أن وقائع التاريخ لم تُدوّن في حينها، دُونت في ظروف أملت عليها أن تتجه اتجاهاً يخدم السلطة في وقت التدوين، والسلطة هنا أنواع: سياسية وقومية وثقافية واجتماعية، والثاني أن الصورة التاريخية دخلت في عقيدة المسلم، فتحولت من كونها واقعة تاريخية، لها أسبابها الموضوعية، إلى مقدس من المقدسات التي لا يمكن مناقشتها، لهذا السبب وُضعت كي تترسّخ قدسيتها، مجموعة من الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ، مما يعني أن نقد الصورة التاريخية يعني نقد الرسول الكريم، وهذا لا يجوز شرعاً وعقلاً.

هناك حديث يشير إلى نوع الحكم، «عن سفينة، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً»[44]، وهناك حديث يجعل المَلِك معاوية بن أبي سفيان: «عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خلافة النبوة ثلاثون عاماً، ثم يؤتي الله الملكَ من يشاء. فقال معاوية: قد رضينا

44- صحيح ابن حبان، ابن حبان، (موقع جامع الحديث) 28: 427.

بالمُلك»[45]، وهناك حديث يحدد أوصاف الحكم، عن أبي ثعلبة ومعاذ، قالا: قال رسول الله ﷺ: إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم كائن مُلكاً عضوضاً، ثم كائن عتواً وجبرية[46].

تهمّنا هنا نقطتان: الأولى أن معاوية بن أبي سفيان مَلِكٌ بحديث الرسول الكريم، بمعنى أن ملكه من قضاء الله وقدره، الثانية: وصف ملك معاوية ومن تلاه من الأمويين بالعضوض، ووصف ملك العباسيين بالعتو والجبرية[47].

والملك العضوض هو «الذي فيه عَسْف وظُلمٌ للرعية، كأنه يعَضُّهم عضاً»[48]، ويبدو أن تداول هذا المصطلح كان أقدم من حكم الأمويين، إذ استعمله قسم من المسلمين (المهاجرون وبقية الشورى) في كتابٍ، أرسلوه إلى أهل مصر زمان عثمان بن عفان، جاء فيه: «كانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملك عضوض»[49]، ويبدو أيضاً أن استعماله مقترن بمن يرى أن حكمه من قضاء الله وقدره، ففي كتاب أرسله عثمان ﷺ في أثناء حصاره، إلى أهل الشام عامة، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة: «أما بعد، فإني في قوم، طال فيهم مقامي، واستعجلوا القدر فيّ، وقد خيّروني بين أن يحملوني على شارف [المسن العجوز من الإبل] إلى دخل [جزيرة بعيدة]، وبين أن أنزع لهم رداءَ الله الذي كساني، وبين أن أقديهم [أسلم لهم نفسي ليأخذوا القود مني] ممن قتلت»[50].

في حكم عثمان ﷺ تظهر جدلية الاستخلاف بقدر الله وقضائه والملك العضوض، والجدلية تعني أن كل طرف يقوم على الآخر، فالاعتقاد بالاستخلاف بقدر الله وقضائه يؤدي إلى العسف والظلم عند من لا يحكّم القرآن الكريم والسنة النبوية، ولا نستغرب أن غالبية الحكام (الملوك) كانوا يعتقدون الاستخلاف ويمارسون نتيجته،

45- دلائل النبوة، البيهقي، (موقع جامع الحديث) 7: 138.

46- المعجم الكبير، الطبراني، (موقع ملتقى أهل الحديث) 1: 158.

47- الجبرية من يقولون بنفي الفعل عن العبد حقيقة، وإضافته إلى الله تعالى. الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، 1404، 1: 85.

48- الفائق في غريب الحديث الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط2، 2: 443.

49- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه، مصر (د.ت). 1: 38.

50- نفسه.

فقد كتب يزيد بن معاوية بعد موت أبيه: «أما بعد، فإن معاوية بن أبي سفيان كان عبداً استخلفه الله على العباد، ومكّن له في البلاد وكان من حادث قضاء الله -جل ثناؤه وتقدست أسماؤه فيه-، ما سبق في الأولين والآخرين ... وقد قلّدنا الله -عز وجل- ما كان إليه».

لا يختلف اعتقاد المنصور عمن سبقه إلى الحكم، بل يزيدهم بالعتوّ والجبرية، فقد قال، حين حضرته الوفاة: «إني كنت رأيت في المنام، قبل أن يفضي هذا الأمر إلينا، كأنّا في المسجد الحرام إذ خرج النبي ﷺ من البيت، ومعه لواء، فقال أين عبد الله؟، فقمت أنا وأخي وعمي، فسبَقنا أخي (يعني أبا العباس)، فأخذ اللواء فخطا به خطوات أحصيها وأعدها، ثم سقط وسقط اللواء من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، ثم رجع إلى موضعه، فقال: أين عبد الله؟. فقمت أنا وعمي، فزحمت عمي فألقيته، وتقدمت فأخذت اللواء، فخطوت به خطوات أحصيها وأعدها، ثم سقطت وسقط اللواء من يدي، وقد انقضت تلك الخطا، وأنا ميت في يومي»[51].

والنص يؤسس لمُلك المنصور على الوحي، والرسول الكريم الذي رآه في منامه لا ينطق عن الهوى، فما صار وكان هو بقضاء الله وقدره، كما يؤسس لعتو المنصور، في مزاحمة عمه عبد الله بن علي، فقد أرسل جيشاً للقضاء عليه، فانهزم أمامه، ولجأ إلى أخويه في البصرة، والمعروف أنه اشتد على كل منافسيه في الحكم[52].

والآن نريد العودة إلى السؤال، هل أدّت قصص الحيوان وظيفتها النسقية في ترسيخ قاعدة (الملك العضوض)، ثم أُيعقل أن المنصور ربما قتل ابن المقفع بسبب من كليلة ودمنة، وكليلة ودمنة يؤسس لقاعدة حكمه؟.

هنا يجب الفصل بين الظاهر والمضمر، الظاهر أن ابن المقفع أراد «النصح للخلفاء، حتى لا يحيدوا عن طريق الصواب، وتفتيح أعين الرعية حتى يعرفوا الظلم من العدل، وحتى يطالبوا بتحقيق العدل»[53]، والمضمر هو التأكيد على شرعية حكم المنصور، من خلال الكشف عن أنه إنما كان بقضاء الله وقدره، وله أن يعتو ويتكبر

51- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، (موقع الوراق) 1: 264.
52- الوافي بالوفيات، الصفدي، (موقع الوراق) 1: 417.
53- ضحى الإسلام 1: 229.

ويطغى[54]، إن النصح للخلفاء نقيض لتأكيد ملكهم العضوض واستخلافهم من قبل الله، فهو مضاد له[55]، هنا أدى عمل ابن المقفع وظيفته النسقية، إذ رسّخ في الأذهان تسلط الملوك بالعسف والظلم، وملكهم بالقضاء والقدر اللذين لا يمكن ردّهما.

ونزيد أن (كليلة ودمنة) ينتهي بالإقرار بما أضمر، لنتصور أن الملك هو المنصور، قال بيدبا: «أيها الملك، عشت ألف سنة، وملكت الأقاليم السبعة، وأعطيت من كل شيء سبباً، مع وفور سرورك، وقرة عين رعيتك بك، ومساعدة القضاء والقدر لك»[56]. فما الذي يستقر في أذهاننا من هذا؟. شرعية الحكم، وتوسّع المملكة، ووفرة السرور، واطمئنان الرعية، والعون الإلهي. وهو ما استقر في الذاكرة العربية، حين تسمِّي المنصور.

54- كليلة ودمنة، (موقع الوراق) ص2.

55- النقد الثقافي ص 77.

56- كليلة ودمنة، (موقع الوراق) ص90.